

هل الإنسان خليفة عن الله في أرضه ؟

عبد الرحمن حسن هبيلكه الميراني / عضوة هيئة التدريس في كلية الدعوة وأصول الدين بمكة المكرمة

تطلقها اتباعا ، دون بحث عن جذور هذه الفكرة ، ومصدرها وأسانيدها النصية أو العقلية المنطقية .

وربما استخدمتها أنا نفسي ، وسجلتها في بعض ما كتبت تسرعاً مني واتباعاً لما يطلقه معظم الدعاة الإسلاميين .

لاشك أن هذه المقولة براقعة في ظاهرها ، ولكن لدى تحليلها نلاحظ أنها ذات إشكال كبيرة في مفاهيم العقيدة الإسلامية ، وبيان ذلك فيما يلي :

إن الاستخلاف يتضمن معنى تفويض المستخلف للخليفة ، وهذا التفويض :

إما أن يكون تفويضاً في الخلق .

أو تفويضاً في الحكم والأمر والنهي .

أو تفويضاً في العمل والتصرفات .

أما التفويض في الخلق فالمقرر في العقائد بداهة ، أن الخلق كله لله وحده ، والله تعالى لم يفوض أحداً بأن يخلق شيئاً ، فليس لله خليفة في الخلق ، وأما معجزات عيسى عليه السلام في إحيائه للموتى ونفخه في الطين فيكون طيراً ، فلم يكن تفويضاً في الخلق ،

هل الإنسان خليفة عن الله في أرضه ؟

في ظني أن من الاغاليط التي وقع فيها بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين ، وهم معذورون في اجتهداهم ومأجورون إن شاء الله ، فتابعهم عليها مقلدوهم فنشروها نشرًا واسعاً :

فكرة : « أن الإنسان خليفة عن الله في أرضه » أخذنا من قول الله عز وجل للملائكة عند بدء خلق آدم الإنسان الأول في الأرض : « إنسى جاعل في الأرض خليفة »

مع أنه ليس في النص أية دلالة على أنه خليفة عن الله ، وأطلق الدعاة الإسلاميون وأتباعهم ببراءة وحسن نية ، مقولتهم المعاصرة :

إن الإنسان خليفة عن الله في أرضه ، لإقامة شرعه وعمران الأرض على منهج الله .

وسرت هذه المقولة مسيرة الحقائق المسلم بها ، وأخذت السنة بعض العلماء المنهجيين

ولكنها معجزات كان يجريها الله على يد رسوله ، ورسوله ما كان يباشر أسبابها إلا بالأذن الرباني وهو ما بينه الله في سورة (المائدة ٥) بقوله :

« إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك . إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ففتفتح فيها فتكون طيراً بإذني ، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين » .

وهو ما أعلنه عيسى عليه السلام حين بعثه الله إلى قومه ، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣) حكاية لمقالة عيسى لقومه :

« إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

فإجراء كل معجزة من هذه المعجزات لم يكن يتم إلا بإذن الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا تفويض في الخلق مطلقاً .

وأما التفويض في الحكم والأمر والنهي عن الله فله عقلاً وشرعاً وقيوداً ، إن الحاكمية لله وحده ، فمن له الخلق - هو الذي له الأمر ، وكون الحاكمية لله وحده هو من عناصر توحيد الألوهية .

والرسول مبلغ عن الله شرائعه لعباده ، وحين يعطي الله رسوله تفويضاً في الاجتهاد لاستنباط أحكام الله ، فإنه عز وجل يتابعه بالتعديل والتصحيح إذا أخطأ ، لأن الناس يؤمنون بأن ما يحكم به الرسول هو حكم الله ، ومادام الرسول موجوداً فالوحي لم ينقطع ، والمتابعة قائمة ، فما يحكم به الرسول اجتهاداً منه ، ويُقره الله عليه دون تعديل ، فهو حكم الله .

فالتفويض في الأحكام لا يكون إلا لنبي معصوم عن مخالفة شرع الله ، ومراداته في التكليف ، وإذا لم يكن معصوماً عن الخطأ في الاجتهاد فهو متابع بالتصحيح والتعديل .

ولا يصلح الناس بشكل عام لمثل هذا التفويض ففيهم العصاة ، وفيهم الكفرة وإذا أخطأ صالحوهم في اجتهاداتهم لم نجد حياً يصححها لهم ويبين فيها حكم الله ، لانقطاع الوحي ، وانتهاء النبوات .

وقد علمنا الرسول ﷺ أن لا تنزل الناس على حكم الله ، لأننا لا ندري أنصيب فيهم

حكم الله أولا ؟

ففى حديث بريدة الذى رواه مسلم ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً .

وقد جاء فى هذه الوصايا ما يلى :

« وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري : أتصيب فيهم حكم الله أم لا ؟ »

فالتفويض فى الأحكام لغير المعصوم المتابع بالوحي غير مقبول شرعاً . وأبان الرسول ﷺ معنى اتخاذ اليهود والنصارى أجبائهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فى قول الله تعالى فى سورة (التوبة ٣١) :

« اتخذوا أجبائهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » .

جواباً لعدي بن حاتم الطائى ، لما قال للرسول : إنهم لم يعبدوهم ، فقال له الرسول ﷺ :

« بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم

إياهم »

فهذا شأن التفويض فى الأحكام إن يكن فلا يكون إلا لرسول الله ﷺ .

وأما التفويض فى العمل والتصرفات فهو يتضمن إباحة كل تصرف وعمل يصدر عن الإنسان ، وهذا خلاف الواقع ، إذ الإنسان موضوع موضع التكليف والمسئولية ، والمكلف مأمور ، تجب عليه الطاعة وهو مسئول عن عمله ، وليس بمفوض ، إنه عبد مبتلى ، وليس خليفة عن الله سبحانه ، لقد تعالى الله عن ذلك وتنزه .

أما التمكين القدرى للإنسان من العمل فيما سخر الله له ليلبوه فى ظروف هذه الحياة الدنيا ، فليس تفويضاً ولا استخفافاً عن الله ، هذا ما عليه عقيدة السلف الصالح .

روى عن سيدنا على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى مسألة أعمال العباد بين الجبر والاختيار قوله : (١)

« أمر الله تعالى بالخير تخييراً ، ونهى عن الشر تحذيراً ، ولم يُعص مغلوباً ، ولم يُطع مكرهاً ، ولم يُملك تفويضاً ، فهو أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض ، والاستطاعة تملك بالله الذى إن شاء ملك » .

(١) أنظر شرح المقاصد ج ٢ صفحة ١٢٣ والاتحاف

شرح الاحياء ج ٢ صفحة ٥٦ .

فأبان - رضى الله عنه - أنه لا جبر ولا تفويض ، فمن أين يكون الإنسان خليفة عن الله في أرضه ؟!!

والخليفة لا بد أن يكون مفوضاً على أي معنى من معاني التفويض .

ونلاحظ أيضاً أن مفهوم الخليفة أعلى شأنًا من مفهوم النبى ومن مفهوم الرسول ، فالنبى منبأ عن علوم ربانية بالوحي ، والرسول مكلف بالتبليغ ، وقد قام دليل العقل ودليل الشرع على وجوب كون الرسول معصوماً عن المعاصى والمخالفات ، لئلا يكذب على الله في بلاغاته ، ولئلا يكون أسوة غير حسنة في أعماله .

ولقد جعل الله مع الرسل رقدا من الملائكة ، يتابعونهم ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وفي بيان هذه الحقيقة قال الله تعالى في سورة (الجن ٢٥ - ٢٨) :

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا »

فإذا كان الرسول كذلك فكيف بالخليفة الذى تتضمن مهمته تفويضاً عمن استخلفه ولو فى أدنى الأمور .

إن أدنى ما يشترط فيه بداهة العصمة عما

يخالف التصرفات الحكيمة للمستخلف .
أف يقال بعد هذا : إن الإنسان على وجه العموم خليفة الله فى أرضه ؟!
وهل يسد ثغرات الاشكال أن نضيف إلى ذلك لإقامة شرع الله وعمران الأرض على منهج الله ؟

وقد قال الله تعالى فى سورة (يوسف ١٢) :

« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » ١٠٣ .

فكيف يصلون لمثل هذه الخلافة ؟!
وكيف يستخلفهم الله عنه وهو عز وجل عليم حكيم ؟!

وإذا كان الله بحكمته لا يجعل رسالته إلا حيث توجد الأهلية الكاملة لحمل رسالته ، وهى رسالة تبليغ وأسوة حسنة ، فقال عز وجل فى سورة (الانعام ٦) :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » ١٢٤ .
أفلا يكون استخلافه عنه كذلك لو شاء أن يستخلف ؟!

إنه سبحانه لو شاء أن يستخلف عنه ، لاختار واصطفى من هو أهل لمثل هذه الخلافة ، ولم يجعل الأمر عاماً لكل ذوى الإرادات الحرة ، الذين مكنهم من طاعته ومعصيته حتى الكفر به ، ليمتحنهم ، ثم ليحاسبهم ، وليجازيهم على أعمالهم .

الخلافة فيها معنى الوكالة :

والخلافة عن الله فيها معنى التوكيل والانبأه ، وقد دلتنا النصوص القرآنية على أن الله هو الوكيل على كل شيء ، وبين الله لرسوله أنه ليس وكيلا على الناس ، وإنما هو رسول مبلغ فقط ، وإذا كان الرسول محمد ﷺ - وهو خير خلق الله - ليس وكيلا على الناس عن الله فإن أحدا من بعده لا يصلح لأن يكون عن الله وكيلا ، وفيما يلي طائفة من النصوص الدالة على هذه الحقيقة .

١ - خاطب الله رسوله محمدا بقوله في سورة (هود ١١) :

« فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك . إنما أنت نذير . والله على كل شيء وكيل » ١٢ .

أي : ما أنت إلا نذير رسول منذر مبلغ فلست عليهم وكيلا ، إنما الوكيل هو الله ، فالله الرب الخالق المتصرف المالك هو الوكيل وهو ذو السلطان المهمين على كل شيء .

٢ - وقال الله عز وجل في سورة (الزمر ٣٩) :

« الله خلق كل شيء وهو على كل شيء وكيل » ٦٢ .

فهو سبحانه ذو السلطان المطلق على كل شيء ، وبعد خلقه للأشياء ، فهو الوكيل المتصرف بأمورها ، فيسبب لها الأسباب ، ويدفع عنها الموانع ، ويمدها بما يحتاج إليه وجودها وبقاؤها ، وكم من أعمال لا نستطيع إحصاءها يقوم الله عنا فيها ، ولولا قيامه سبحانه بها عنا لما استمر وجودنا لحظة واحدة .

٣ - وأمر الله رسوله محمدا ﷺ بقوله في سورة (يونس ١٠) :

« قل : يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها . وما أنا عليكم بوكيل » ١٠٨ .

وما أنا عليكم بوكيل : أي فلا اغني عنكم من الله شيئا ، لأنني لست وكيلا مفوضا ، وإنما أنا مبلغ رسالة ربي .

٤ - ثم قال له في سورة (الزمر ٣٩) :

« إنا أنزلنا إليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل » ٤١ .

٥ - وبعد ماجاء في سورتي (يونس) و (هود) وقبل سورة (الزمر) أنزل الله على رسوله في سورة (الانعام ٦) قوله عز وجل :

« ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل

شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل «
١٠٢

وقوله عز وجل

« ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك
عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل »
١٠٧ .

٦ - ثم أنزل عليه بعد مجاء في سورة
(الزمر) قوله عز وجل في سورة (الشورى
(٤٢)

« والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ
عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » ٦ .

التسخير ليس تفويضا ولا توكيلا
ولا خلافة عن الله :

أما تسخير ما في الأرض وما في السماء
للإنسان فليس تفويضا له في أن يتصرف
فيها ، وليس توكيلا ، وليس خلافة عن
الله .

إنما التسخير تمكين قدري مقرون بالاذن
الرباني القدري ، وواقع في دائرة
الامتحان ، ومادة هذا الامتحان التكليف
بالأوامر والنواهي ، وساحته المسخرات
للإرادة الحرة ، وعقبيه أهواء النفوس
وشهواتها ونزعاتها ونزغاتها ومطالبها
وغرائزها .

ومع التسخير السببي لا يتم في الكون
إيجابا ولا سلبا إلا ما يقضي به الله عز وجل
فما كان لله فيه قضاء وقدر أذن سبحانه
بوقوعه ، وجرت المسخرات بقضاء الله وقدره
لتحقيق نتائج إرادات المكلفين .

وما لم يكن لله فيه قضاء ولا قدر ، لم
يأذن الله سبحانه بوقوعه ، وقامت العقبات
بخلق الله وقضائه وقدره لمنع حصول نتائج
إرادات المكلفين ، فلم تؤثر الأسباب المسخرة
في تحقيق مرادات الناس ، وإنما الذي
يتحقق هو مراد الله بأسباب أخرى أو بخلق
خارج عن نظام الأسباب .

ولذلك نلاحظ أن النصوص القرآنية
الكثيرة ، قد ربطت تحقيق نتائج أعمال
المخلوقين السببية بإذن الله ، بما في ذلك
أعمال الملائكة وأعمال المرسلين في إجراء
الآيات الخوارق .

فالرسول لا يأتي بآية إلا بإذن الله .
وجبريل لا ينزل بالقرآن على قلب محمد ﷺ
إلا بإذن الله . والسحر لا يضر أحدا إلا بإذن
الله . وانتصار فئة من الناس على فئة أخرى
لا يتم إلا بإذن الله . وكل نفس لا تموت
إلا بإذن الله حتى البلد الطيب إنما يخرج
نباته بإذن ربه .

فالقوانين الثابتة والأسباب الخاضعة
للسنن الدائمة لا تؤدي أعمالها الطبيعية

إلا بإذن الله .

إذن : فلا توكيل ولا تفويض ولا خلافة
عن الله . والنصوص شواهد على ذلك .

١ - قال الله عز وجل في سورة (الأعراف) : (٧)

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ،
والذى خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك
نصرف الآيات لقوم يشكرون » ٥٨ .

٢ - وقال الله عز وجل في سورة (ابراهيم) : (١٤)

« الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس
من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط
العزیز الحمید » ١ .

وقال عز وجل فيها أيضا حكاية لمقالة
رسل أقوام سابقين :

« قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر
مثلکم ولكن الله یمن علی من یشاء من
عباده وما كان لنا أن نأتیکم بسلطان
إلا بإذن الله وعلى الله فلیتوکل المؤمنون »
١١ .

وقال عز وجل فيها أيضا :

« ألم تر کیف ضرب الله مثلا كلمة طيبة
كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء
« ٢٤ » تؤتی أكلها کل حین بإذن ربها » .

٣ - وقال الله تعالى في سورة (الرعد) : (١٣)

« وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن
الله لكل أجل كتاب » ٣٨ .

٤ - وقال الله تعالى بشأن جبريل عليه
السلام في سورة (البقرة ٢) :

« قل : من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على
قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى
وبشرى للمؤمنين » ٩٧ .

٥ - وقال الله تعالى بشأن السحرة الذين
يتعلمون من السحر ما يفرقون به بين المرء
وزوجه في سورة (البقرة ٢) :

« وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن
الله » ١٠٢ .

٦ - وقال الله تعالى في سورة البقرة أيضا في
حكاية قصة طالوت وجالوت :

« قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : كم
من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله
والله مع الصابرين » ٢٤٩ « ولما برزوا
لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبرا
وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين
« ٢٥٠ » فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود
جالوت »

٧ - وقال الله تعالى في سورة (آل
عمران ٣) :

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله
كتابا مؤجلا » ١٤٥

وقال فيها أيضا بشأن ما أصاب المسلمين
في أحد :

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين » ١٦٦ .
فكل حدث يحدث ضمن نظام الأسباب والمسببات ، وضمن سنن الله الثابتة إنما يحدث بإذن الله . فلا توكيل ولا تفويض ولا خلافة عن الله .

فكرة الخلافة عن الله مزلق خطير :

وفكرة خلافة الانسان عن الله في الارض فكرة خطيرة ، تزحف منها تعميات تجعل الأصلح لعمران الأرض عمراناً حضارياً مادياً هم المؤهلين ليكونوا خلفاء الله في أرضه ، ولو كانوا كافرين به جاحدين لوجوده .

وهذه الفكرة تنتقل إلى إشاعة وجوب طاعة الدول الحضارية المستعمرة المتقدمة في مجالات الصناعة والقوة والعلوم المادية ، وجوب عدم مقاومتها ، لأن رجالها هم المؤهلون لعمران الأرض عمراناً حضارياً مادياً ، فهم خلفاء الله في أرضه الذين تجب طاعتهم ، وفق قانون إستخلاف الأصلح للعمران ، والأعرف به ، والأقدر عليه ، لو كان الاستخلاف عن الله أمراً واقعاً فعلاً .
ومن هذه النقطة المزلقية الخطيرة زحف « ميرزا غلام أحمد القادياني » عميل الانجليز في الهند ، والعامل في خدمتهم ،

والناصر لقضاياهم ، فأسقط ركن الجهاد في سبيل الله ، وزعم أن الانجليز هم خلفاء الله في أرضه ، فلا يجوز قتالهم ، ولا تجوز مقاومتهم لإخراجهم ، بل تجب طاعتهم والاستكانة لحكمهم وسلطانهم .

فكرة خلافة الإنسان
عن الله بدعة حديثة :

على أن الفكرة بحد ذاتها بدعة حديثة من بدع الأفكار ، لم يقل بها أحد من السلف ، وليس لها سند من نص شرعي ، جل ما تعتمد عليه تأويل فاسد ، ثم شاعت واستهوت كثيراً من الناس وتلامعت ألوانها في نظر الكثيرين من الدعاة المخلصين في الدعوة إلى الاسلام ، ورأوا أنهم يستحثون بها الضمير الانساني لا لتزام منهج الله وتطبيق أحكامه وشرائعه .

وقصة ذلك أن الطبري - رحمه الله - ذكر رأياً في تفسير الآية مفاده أن آدم عليه السلام ومن هو مثله من الأنبياء والرسل خليفة من الله في أن يحكم بحكم الله بين بنيهِ ، الذين سيوجد منهم من يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء .

وآدم بعد هبوطه من الجنة وتوبته ، اجتباه الله بالنبوة فصار نبياً معصوماً ، والنبي المعصوم أهل لأن يستخلف في أن يحكم بحكم الله إذا شاء الله ذلك .

وهناك رأيان آخران في تفسير قول الله تعالى : « إني جاعل في الأرض خليفة » ذكرهما الطبري أولا فيما ورد من المأثور عن السلف .

الرأى الأول : أنه كان قد سكن الأرض جن قبل الإنسان ، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، فقضى الله بأن يطردهم ، ويخلق الانسان ، ويجعله خليفة لسكان الأرض قبله .

فخليفة على هذا « فعيلة » بمعنى « فاعلة » أي يخلف من سبقة ، أي فهو خليفة خالفة تخلف خليفة سبقت

الرأى الثانى : أن الانسان من خصائصه أنه يتناسل فيخلف بعضه بعضا وآدم الذى هو الانسان الأول (خليفة) بمعنى مخلوف من ذريته .

فصيغة « خليفة » على هذا الرأى « فعيلة » بمعنى « مفعولة » أى مخلوف فهذا المخلوق الجديد خليفة مخلوفة ، يموت قسم منها ويخلفه أنسال منها .

ويطابق أحد هذين المعنيين ما جاء في طائفة من النصوص القرآنية ، ومن الخير في البحث العلمي أن نسبرها ونتدبرها وهى فيما يلى :

١ - قال الله تعالى خطابا للناس جميعا في سورة (فاطر ٣٥) :

« هو الذى جعلكم خلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره ، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا » ٣٩ .

خلائف : جمع خليفة

فبين الله في هذه الآية أن الناس خلائف في الأرض ، أى يتعاقبون عليها ، فيخلف بعضهم بعضا ، وكل خلف فيها سيصير سلفا ، وكل سلف سيلحقه خلف ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

٢ - وقال الله تعالى في سورة (يونس ١٠) خطابا للناس بعد بعثه محمد ﷺ :

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات . وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين » ١٣ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون . ١٤ »

ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم : أى جعلناكم تخلفونهم في سكنى الأرض من بعدهم . وجعلناكم مخلوفين من أنسالكم .

٣ - ثم خاطب الله الناس بقوله في آخر سورة (الأنعام ٦) :

« وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور

رحيم . ١٦٥ »

أي جعلكم خلائف خلفتم من قبلكم في سكنى الأرض والانتفاع من خيراتها ، ويخلفكم أنسالكم من بعدكم ، فأنتم خالفون ومخلفون .

٤ - وأبان الله عز وجل أن هذه هي سنتة في البشر جميعا ، إنها قصة التاريخ الانساني : (أ) - نوح ومن نجامعه في الفلك جعلهم الله خلائف .

(ب) - عاد جعلهم الله خلفاء من بعد نوح . (ج) - ثمود جعلهم الله خلفاء من بعد عاد .

وهكذا يتداول الاستخلاف .

ففى شأن نوح ومن نجامعه في الفلك قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠) .

« فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المذيرين » ٧٣ .

أي : فكان نوح ومن نجا معه خلائف ، خلفوا من عمهم الله بالغرق ، ثم توالدوا ، فصار بعضهم يخلف بعضا .

وفي شان عاد قال الله تعالى في سورة (الاعراف ٧) حكاية لما قاله هود عليه السلام لقومه :

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة . فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » ٦٩ .

خلفاء : جمع خليف . وقال سيبويه : جمع خليفة كسروه تكسير فاعيل ، لأنه لا يكون إلا للمذكر . وقال غيره : فعيلة بالهاء لا يجمع على فعلاء (لسان العرب) .

أي : اذكروا إذ جعلكم الله خلفاء في الأرض من بعد انقراض عصر نوح وملحقاته .

وفي شأن ثمود قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧) أيضا حكاية لما قاله صالح عليه السلام لقومه :

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا . فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » ٧٤ .

أي : اذكروا إذ جعلكم الله خلفاء في الأرض من بعد إهلاك المكذبين من عاد ، وانقراض ذيول عصر من بقي منهم .

وكان استخلاف ثمود تحقيقا لما أنذر به هود قومه عاداً ، إذ قال لهم كما جاء في سورة (هود ١١) :

فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا . إن ربي على كل شيء حفيظ » ٥٧ .

أي : فإن تتولوا معرضين عن الاستجابة لدعوتي ، فقد أديت وظيفتي فيكم ، إذ أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، وسيهلككم

الله وينزل بكم عذابه ، ويستخلف قوما غيركم ، ليلبؤهم كما ابتلاكُم . وبمثل هذا الانذار أنذر الله عز وجل الذين كفروا بمحمد ﷺ إذ خاطبهم بقوله في سورة (الانعام) ٦ :

« وربك الغني ذو الرحمة . إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين . » ١٣٣ « إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين »

وهكذا عرض الله عز وجل لنا من خلال الواقع البشري قصة هذا الإنسان إنه خالف ومخلوف على هذه الأرض ، فالأجيال تتعاقب خلائف وخلفاء ومستخلفين ، والمنقرضون إما أن ينقرضوا بعقاب جماعي مهلك ، وإما أن ينقرضوا وفق سنة الوفيات ، بحسب الأعمار المقدرة للأفراد أو للأمم .

وإذا كان الأمر كذلك فالعنوان المناسب لأول مخلوق من هذا النوع هو اسم (الخليفة) .

ولذلك قال الله عز وجل للملائكة حين أراد إظهار قضائه وقدره في خلق هذا النوع : « اني جاعل في الأرض خليفة » وسأل الملائكة ربهم : ما صفة هذا المخلوق وماخصائصه ؟

فأبان الله لهم صفاته ، ومنها أنه يكون ذا إرادة حرة ، وذا صفات نفسية ينتج عنها الإفساد في الأرض وسفك الدماء .

فقالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك .

وطوى النصّ القرآني كعادته في الإيجاز سؤال الملائكة عن صفات هذا الخليفة وجوابهم ، ولكن دل على المحذوف استشكالهم أو سؤالهم عن الحكمة . وغفل أهل التأويل عن هذا المحذوف فذهبوا مذاهب شتى في المراد من معنى الخليفة .

ولدى التأمل في الرأي الثالث المأثور ، والذي كان منزع الخطأ الذي حدث عند المتأخرين ، نلاحظ أنه الرأي الذي يبين أن في الآية من سورة (البقرة) محذوفاً دل عليه قول الملائكة :

« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »

وإليك الرأي الثالث كما ذكره الطبري الرأي الثالث : روى الطبري : « عن

موسى بن هارون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط عن السدي ، في خبر ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ أن الله جل ثناؤه قال للملائكة :

« اني جاعل في الأرض خليفة . قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له

ذرية يفسدون في الأرض ، ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً » .

فكشف هذا القول الحوار المطوي في الآية ، والذي هو بين قوله تعالى : « إنى جاعل في الأرض خليفة » وبين مجاء بعده في الآية : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ... »

ولكن الطبري علق من عنده على هذا القول المأثور فقال مايلي : « فكان تاويل الآية على هذه الرواية التي ذكرناها عن ابن مسعود وابن عباس : إنى جاعل في الأرض خليفة مني ، يخلفني في الحكم بين خلقي ، وذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله ، والحكم بالعدل بين خلقه »

من الواضح أن هذا فهم من الطبري لهذه الرواية . ثم أخذ بعض المفسرين عن الطبري هذا الفهم ، فذكروا أن ابن عباس وابن مسعود قد روي عنهما أنها قالا بضمون هذا الفهم ، مع أن الطبري إنما ذكره استنباطاً وفهماً ، ولم يسنده اليهما في رواية صريحة الدلالة .

وباستطاعتنا أن نفهم من الرواية غير الفهم الذي فهمه الطبري رحمه الله وأجزل مثوبته .

فالرواية قد حلت فقط إشكالا مضمونه : كيف عرفت الملائكة أن هذا المخلوق الذي

أخبرهم الله عنه ، سيكون منه إفساد في الأرض ، وسفك للدماء حتى سألوا ربهم سؤال الباحث عن الحكمة :

« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسير بحمدك ونقدس لك ؟ »
بدليل مجاء في الرواية من أنهم سألوا ربهم عن صفات هذا المخلوق الجديد ، إذ قالوا : « ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ »

أي : أي شيء يكون هذا الخليفة ؟ ما هي صفاته ؟ وما هي خصائصه ؟

فلما أجابهم : بأنه مخلوق يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً ، قالوا مقالتهم التالية الواردة في الآية .

ويظل على هذا تحديد معنى الخليفة متردداً بين الرايين الأول والثاني ، وأرجح منها الثاني بعد تدبر النصوص القرآنية التي سبق استعراضها .

أما المعنى الذي فهمه الطبري من الرواية فهو احتمال ثالث من عنده ، لا تدل عليه الرواية بأكثر من كونه احتمالاً وارداً على أصل الموضوع ، وليس في الرواية ما يدل على أن ابن عباس وابن مسعود قد قالا فعلاً بهذا الفهم .

هذا كل ما عند الطبري حول هذا الرأي ، وقد ظهر أنه فهم من عنده لرواية رواها .

ثم جاء الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار ، فوسع الدائرة ، وزحف زحفاً تعميمياً في التأويل ، فرأى أن الإنسان كله خليفة عن الله في الأرض ، وفيما يلي نصّ كلامه :

« هذا هو المذهب الأول في تفسير الخليفة (أى القول بأن الإنسان خليفة لساكن في الأرض قبله) وذهب الآخرون إلى أن المراد : إننى جاعل في الأرض خليفة عني ، ولهذا شاع أن الإنسان خليفة الله في أرضه . وقال تعالى « ٣٨ : يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض » . والظاهر والله أعلم - أن المراد بالخليفة آدم ومجموعة ذريته ، ولكن مامعنى هذه الخلافة ؟ وما المراد من هذا الإستخلاف ؟ هل هو استخلاف بعض الإنسان على بعض ؟ أم استخلاف البعض على غيره ؟

جرت سنة الله في خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على السنة أناس منهم يصطف فيهم ليكونوا خلفاء عنه في ذلك ، وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسننه الوضعية (أي الشرعية لأن الشرع وضع إلهي) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية ، فيصح أن يكون معنى الخلافة عاما في كل ماميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات ، نطق الوحي ، ودل العيان والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعا مختلفة ، وخص

كل نوع غير نوع الإنسان بشيء محدود معين لا يتعداه . فأما ما لا نعرفه إلا من طريق الوحي كالملائكة ، فقد ورد فيها من الآيات والأحاديث ما يدل على أن وظائفه محدودة .. »

ثم بسط فكرة كون الإنسان خليفة عن الله في أرضه ، مستدلا بواقع حال الإنسان الذي استطاع أن يتصرف بالمسخرات ويخترع ويبتكر .

فهل في هذا الذى ذكره الشيخ رشيد رضا ما يسمح لنا بأن نعتبر الإنسان خليفة عن الله في أرضه ، بعد ما عرفنا من تحليل عناصر الخلافة كما سبق بيانه .

وبعد الشيخ رشيد رضا ردد كثير من الدعاة الاسلاميين هذه الفكرة ، حتى ذاعت وشاعت ، وغدت من الأمور المقررة المفروغ من بحثها في مفاهيم الإسلام . وغدت فكرة ذات استهواء كبيرة في مجال الدعوة .

لاشك أن الإنسان يجب أن يكون خليفة عن الله في أرضه ، فهو يرضي بذلك غروره بنفسه ، ونزعات الاستعلاء التى لديه ، ولكن ماكل مايحبب الإنسان هو حق في ذاته ، والتمسك بالخطأ المرضي لما تحب النفوس لا يغني من الحق شيئا .

ويبدو الأمر مخيفا حيننا نلاحظ أن الموضوع له مساس بخصائص الرب الخالق الأمر

بالقسط ، كان من الممكن أن يسأل الملائكة ربهم فيقولوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء .

أي : حتى يحتاج هؤلاء المفسدون سافكو الدماء إلى خليفة يحكم بينهم بالعدل ويقضي بينهم بالقسط ويطبق فيهم أحكام الله .

ونقول : إن مثل هذا الفهم غير مرفوض من الناحية الاعتقادية بيد أننا لا نملك إثباته رأياً لابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ، لما سبق بيانه لدى عرض الرواية ، كما ذكرها الطبري نفسه .

الخلافة بمعنى الحكم والسلطان :

وجاءت الخلافة في النصوص بمعنى الحكم والسلطان والولاية العامة على الناس ، المعانة بالمعونات الغيبية الزائدة على سنن الأسباب المعتادة .

فحين أعطى الله داود عليه السلام الملك قال له كما جاء في سورة (ص ٣٨) :

« يا داود إنا جعلناك خليفة في الارض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ٢٦ .

إنا جعلناك خليفة في الارض : أي جعلناك

الحاكم المهيمن على كل ذرة في الوجود ، وكل حركة وسكنة فيه ، ويتعلق بصفاته عز وجل . ومثل هذا لا يجوز إثباته إلا بدليل قاطع عن الشارع .

ومادام النص متردداً بين احتمالات متعددة ، فالواجب يحتم إستبعاد ما تقضي المفاهيم الدينية العامة باستبعاده منها .

إن الملائكة لا يمكن أن يكونوا قد فهموا من قول الله تعالى لهم : « إني جاعل في الأرض خليفة » أن هذا المخلوق سيكون خليفة عن الله .

لأنهم يعلمون أن الله عليم حكيم ، فهو لا يختار خليفة عن نفسه ، على أي مستوى من مستويات الإستخلاف ، إلا من هو أهل لهذه الخلافة .

ولو فهموا ذلك لما قالوا في تساؤلهم : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ »

إنه لأمر مستنكر جداً : أن يقول الله لهم : سأجعل خليفة مني فيقولوا له : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء .

أليس هذا الربط ربطاً مستنكراً مرفوضاً بالبداهة ؟! هل من صفات المستخلف مثل هذا ؟!

لكن إذا فهمنا كما فهم الطبري رحمه الله من أن هذا الخليفة يحكم بالعدل ، ويقضي

« ذا سلطان وملك على الناس ، فاحكم بين الناس بالحق .

وقد كان ملك داود وملك ابنه سليمان من بعده مؤيدين بمعونات ربانية غيبية زائدة على نظام الأسباب المعتادة في سنن الله للناس أجمعين .

وهذا المعنى للخليفة لا يخرج عن أصل المعنى العام للخلافة ، إلا أنه خاص في الملك والحكم والسلطان والولاية العامة على الناس ، فبعد أول ذي سلطان أو حكم أو ملك في الأرض يكون الآتى من بعده خليفة عنه ، وهو مخلوف من غيره بعد انتهاء أجل ولايته .

والسلطان المؤيد بالمعونات الربانية الغيبية ، الزائدة على سنن الأسباب والمسببات المعتادة ، هو خليفة استخلفه الله إستخلاقاً معاناً ، لإقامة العدل والقسطاس المستقيم والحكم بما أنزل الله .

وهو الخليفة الذى أشار اليه الرسول ﷺ فيما روى البخاري عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما بعث الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة ، إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله » وقد اختار الرسول ﷺ لمتولي السلطان

الاعظم من بعده اسم « الخلفاء » واحدهم خليفة .

فقد روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي ، سيكون بعدي خلفاء فيكثرون »

قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : « أوفوا ببيعة الأول ، ثم أعطوهم حقهم ، واسألوا الله الذى لكم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم » وروى مسلم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ :

« إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما »

وهذه الخلافة المعانة بالمعونات الغيبية الخاصة غير الملك العام الذي يؤتیه الله من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ومشيتته سبحانه تتبع حكمته ، وعلمه بخلقه ، ومن حكمته تأديب الفاسقين بالملوك الظالمين الجائرين ، وعقوبتهم بهم .

قال الله عز وجل في سورة (آل عمران ٣)

« قل : اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شئ قدير » ٢٦ .

والاستخلاف المعان بالمعونات الربانية

الغيبية الخاصة ، كما يكون للخلفاء ذوي السلطان المؤيد بنفحات الغيب ومعوناته ، يكون أيضا للأمم المؤمنة إذا استقامت على منهج الله ، فيجعل الله لهم السلطان في الأرض ، ويجعل منهم الخلفاء .

وقد أطمع الله العرب تلويحا ، بأن يجعلهم خلفاء الأرض ، أي : أصحاب الحكم والسلطان فيها ، خلفاً لذوي السلطان والحكم القائمين ، إذا آمنوا برسول الله محمد ﷺ واتبعوه وعملوا بما أنزل الله عليهم ، ونلاحظ التلويح بهذا المطمع الكبير الذي تتحلب له أشداق العرب لو صدّقوا رسولهم ، في قول الله عز وجل خطابا لأهل مكة في سورة (النمل ٢٧) :

« أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض . أإله مع الله ؟! قليلا ما تذكرون » ٦٢ .

ويجعلكم خلفاء الأرض : أي أصحاب الحكم والسلطان فيها خلفا لحكامها وسلطينها القائمين .

وغفل المشركون عن إدراك هذا التلويح بالطمع العظيم ، أو لم يؤمنوا بصدق الرسول حتى يكون لهم مطمع كهذا ، وهو لا يتحقق لهم إلا بقوة غيبية خارقة .

وما كان تلويحاً ضمناً للعرب في مكة صار وعداً صريحاً في العهد المدني للذين آمنوا

وعملوا الصالحات ، إذ أنزل الله قوله في سورة (النور ٢٤) :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات : ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدونني ، لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ٥٥ . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ٥٦ .

لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ، ومأواهم النار ولبئس المصير ٥٧ » وإذا كان الوعد للمؤمنين وعد استخلاف بالحكم والسلطان في الأرض ، خلفا لحكامها وسلطينها وملوكها ، ذوي القوى العسكرية التي لا تدانيها قوى الذين آمنوا ، جاءت الإشارة إلى مدد المعونة الربانية الزائدة على نظام وسنن الأسباب والمسببات ، فقال الله تعالى في النص :

« لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض » .

ولكن شروط هذا الاستخلاف الموعود به قد جاءت في النص كما يلي :

١ - أن تكون الأمة أمة مؤمنة صادقة في إيمانها : « وعد الله الذين آمنوا » .

٢ - أن يكون إيمانها مترجما في الواقع

خاتمة :

هذا ما ظهر لي في هذا الموضوع والذي انتهيت إليه أنه ليس لنا أن نقول : إن الانسان خليفة عن الله في أرضه . فالفكرة ليس لها مستند من النصّ ، وحولها إشكالات عقدية أوضحتها في البحث .
والله أسأل أن يسدّ لنا ويرزقنا صحة الفهم واستقامة العمل ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .
وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني
عضو هيئة التدريس
في كلية الدعوة وأصول الدين
وأستاذ في الدراسات العليا الشرعية
بجامعة أم القرى

بالأعمال الصالحة : « وعملوا الصالحات »

٣ - أن تعبد الله وحده ولا تشرك بعبادته أحدا : « يعبدونني لا يشركون بي شيئا » ومن الشرك الثقة بفاعلية الأسباب ، والغفلة عن مسببها الذي ستر بها أعماله وأفعاله سبحانه وتعالى .

٤ - أن تقيم الصلاة : « وأقيموا الصلاة » .

٥ - أن تؤتي الزكاة : « وآتوا الزكاة » .

٦ - أن تطيع الرسول في كل أوامره ونواهيه التشريعية والقيادية السياسية والعسكرية ، وغير ذلك « وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » .

ومثل هذا الوعد جاء على لسان موسى لبنى إسرائيل ، كما حكى الله عز وجل في سورة (الاعراف ٧) :

« قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » ١٢٩ .



